(رَبِّ أنعمتَ فَزِدْ)

[تقديم للكتاب]

تَولاَّكَ اللَّهُ بِحفْظِه ، وأعانَكَ علَى شُكْرِه ، ووفَّقَكَ لِطَاعَتِه ، وَجَعَلكَ مِنَ الفَائِزِينَ برحْمتِهِ . ذكَرتَ - حَفِظَكَ اللَّهُ - أنكَ قَرأْتَ كِتَابى فى تَصْنِيفِ حِيَلِ لُصُوصِ النَّهارِ ، وفي تَفْصِيلِ حِيَلِ سُرَّاقِ اللَّيْلِ ، وأَنَّكَ سَدَدْتَ بِهِ كُلَّ خَلَلٍ ، وحَصَّنْتَ بِهِ كُلَّ عَوْرةٍ ، وَتَقدَّمتَ بِما أفَادَكَ مِنْ لَطَائِفِ[1] الخُدَعِ ، ونَبَّهَكَ علَيْهِ مِنْ غَرَائِبِ الْحِيَلِ ، فِيمَا عَسَى أَلاَّ يَبْلُغَهُ كَيْدٌ ، ولا يَحُوزَهُ مَكْرٌ وذَكَرتَ أنَّ مَوقِعَ نَفْعِهِ عَظِيمٌ ، وأَنَّ التَقدُّمَ فى دَرْسِهِ واجِبٌ . وقُلْتَ : اذكُر لي نَوادِرَ البُخَلاَءِ ، واحْتِجَاجَ الأَشِحَّاءِ ، وما يَجُوزُ مِنْ ذَلِكَ فى بَابِ الهَزْلِ ، وما يَجُوزُ منْهُ فى بابِ الجِدِّ ؛ لأَجْعلَ الهَزْلَ مُسْتَرَاحًا ، والرَّاحَةَ جَماما[2] ؛ فَإِنَّ للجِدِّ كَدًّا يَمْنعُ مِنْ مُعاودتِهِ ، ولاَ بُدَّ لِمَنْ الْتَمَسَ نفْعَه منْ مُرَاجعته .

وذَكَرتُ مُلَح[3] الحِزَاميِّ ، واحْتِجاجَ الكِنْدِيِّ[4] ، ورِسالَةَ سَهْلِ بنِ هَارُونَ ، وكَلامَ ابنِ غزْوانَ ، وخُطْبةَ الحارِثِيِّ ، وكلَّ ما حَضَرنِى منْ أعَاجِيبِهم وأَعاجيبِ غيرِهِمْ ، وَلِمَ سَمَّوا البُخلَ صَلاَحًا ، والشُّحَّ اقتصَادًا ، ولِمَ حَامُوا عَلى المَنْع ، ونسبُوهُ إِلَى الحَزْمِ ، ولِمَ نَصَبُوا للُمواسَاةِ ، وقرنُوهَا بالتَضييع ، ولِمَ جَعَلُوا الجُودَ سَرَفًا ، والأُثْرَةَ جَهْلاً ، ولِم زَهِدُوا فِي الحَمْدِ ، وقَلَّ احْتِفَالُهمْ بِالذَّمِّ ، ولِمَ استَضْعَفُوا مَنْ هَشَّ للذِّكْرِ ، وارْتَاحَ للبَذْلِ ، ولِمَ حَكمُوا بالقوَّةِ لِمَنْ لا يَميلُ إلى ثَنَاءٍ ، ولا يَنْحَرِفُ عَنْ هِجَاءٍ ؛ ولِمَ احتجُّوا بظَلَفِ العَيْشِ[5] علَى لِينِهِ ، وبِحُلْوِهِ علَى مُرِّهِ ؛ ولِمَ لَمْ يستحوا مِن رَفْضِ الطَّيِّباتِ فى رِحالِهِمْ ، معَ اسْتِهْتارِهِم بهَا فِي رِحَالِ غَيْرِهِم ، وَلِمِ تَنَايَعُوا فى البُخْلِ ؛ ولِمَ اخْتَارُوا ما يُوجِبُ ذَلِكَ الاسْمَ ، مَعَ أَنَفَتهِمْ مِنْ ذَلِكَ الاسْمِ ؛ ولِمَ رَغِبُوا فى الكَسْبِ ، معَ زُهدِهِمْ فى الإنفَاقِ ؛ ولم عَمِلُوا فِي الغِنَى ، عَمَلَ الخائِفِ منْ زَوَالِ الغِنَى ، ولَمْ يفْعلُوا فِي الغِنَى ، عَمَلَ الرَّاجِي لدوَامِ الغِنَى ، ولِمَ وفَّروا نَصِيبَ الخوْفِ ، وبخَسُوا نَصِيبَ الرَّجَاءِ ، مَعَ طُولِ السَّلاَمَةِ وشُمُولِ العافيةِ ، والمُتَعافَى أَكْثَرُ مِنَ المُبْتَلَى ، ولَيْسَتْ الحوائِجُ أقلَّ مِنَ الفوائِد .

فكَيْفَ يَدْعُوا إِلَى السَّعَادةِ مَنْ خَصَّ نَفْسَه بالشِّقْوةِ ، بلْ كَيْفَ يَنْتَحِلُ[6] نَصِيحةَ العامَّة مَنْ بَدَأَ

---

(١) لطائف : جمع لطيفة ، أى الخفية ، والخُدع : جمع خدعة ، والمراد به المكروه من حيث لا يعلم .

(٢) الجمام : الراحة . (٣) المُلَح : جمع مُلحة ، وهى الكلمة المليحة .

(٤) هو يعقوب بن إسحاق الكندى ، أبو يوسف الفيلسوف ، ولد بالبصرة وترجم كتب اليونان ، فألف فى الرياضيات والفلك ، توفى ٨٦٠ م .

(٥) بظلف العَيْش : أى شدة المعيشة وخشونتها . (٦) ينْتَحِل : انتحل الشىء : ادّعاه لنفسه وهو لغيره .

بِغِشّ الخاصَّةِ ؟ ولِمَ احتجُّوا مَعَ شِدَّةِ عُقُولِهِمْ بمَا أجْمَعتْ الأُمَّةُ علَى تَقْبيحِه ، ولِمَ فخَرُوا معَ اتّساعِ مَعْرِفتهمْ بمَا أطْبَقُوا علَي تَهْجِينِهِ[1] ؟ وكيفَ يَفْطَنُ عندَ الاعْتِلاَل لَهُ ، وَيتَغَلْغَلُ عِنْدَ الاحتِجاجِ عَنْهُ إلَى الغايَاتِ البعيدَةِ ، والمعَانى اللَّطِيفَةِ ، ولاَ يَفْطَنُ لِظَاهِرِ قُبْحِهِ ، وشَنَاعَةِ اسْمِه ، وخُمُولِ ذِكْرِهِ ، وَسُوءِ أَثَرِه عَلَى أهْلِهِ ؟

وكَيْفَ وهُو الَّذِى يُجْمَعُ له بَيْنَ الكدِّ وقلَّةِ المَرْفِقِ[2] ، وبيْن السَّهرِ وخُشونةِ المَضْجَعِ ، وبينَ طُولِ الاغترابِ وطُول قِلَّةِ الانْتِفَاعِ ، ومَعَ عِلْمِهِ بأنَّ وارِثَهُ أعْدَى لهُ مِنْ عَدُوِّهِ ، وأنَّهُ أحقُّ بمالِهِ مِنْ وَلِيِّه ؟

أَوَ لَيسَ لَو أظْهرَ الجهلَ والغَبَاوةَ ، وانتحلَ الغَفْلةَ والحَماقةَ ، ثم احتجَّ بتلكَ المعانِى الشِّدادِ ، وبالألفاظِ الحِسَانِ ، وجَوْدَةِ الاختصَارِ ، وبتقريبِ المعنَى ، وبسهُولَةِ المَخْرَجِ ، وإصابةِ الموضِعِ ، لَكانَ ما ظَهَرَ منْ مَعانيهِ وبيانِهِ ، مكذِّبا لِمَا ظَهَرَ مِنْ جَهْلِهِ ونُقْصَانِهِ ؟ ولِمَ جَازَ أنْ يُبْصِرَ بعقْلِه البعيدَ الغامِضَ ، ويَعْيَا[3] عنِ القريبِ الجليلِ ؟

وقلتَ : فبيِّنْ لي ما الشيءُ الذِى خَبَّلَ عُقُولَهم ، وأفْسَدَ أذهانَهُمْ ، وأغْشَى تِلكَ الأبصارَ ، ونقَضَ ذلكَ الاعتدالَ ؟ وما الشيءُ الَّذِى لهُ عَانَدُوا الحقَّ ، وخالَفُوا الأمَمَ ؟ وما هَذَا التركيبُ المُتَضادُّ : والمِزَاجُ المتنافِى ؟ وما هَذَا الغَبَاءُ الشديدُ الذِى إلَى جَنْبِه فِطْنةٌ عجيبةٌ ؟ وما هذَا السببُ الذِى خَفِىَ به الجليلُ الواضِحُ ، وأُدْرِكَ به الدَّقيقُ الغامِضُ ؟

(البخيل ضعيف)

وقُلْتَ : وليسَ عَجَبِى مِمَّن خَلعَ عِذارَهُ[4] فى البُخْلِ ، وأبْدَى صَفْحَتَهُ للذَّم[5] ، ولم يَرْضَ مِنَ الْقَوْلِ إلاَّ بُمقَارَعَةِ الخَصْمِ ، ولاَ مِنَ الاحْتجَاج إلاَّ بمَا رُسِمَ فى الكتُبِ[6] ؛ ولاَ عَجَبِى منْ مَغْلُوبٍ علَى عَقْلِه ، مُسَخَّرٍ لإظْهَارِ عَيْبِهِ ، كعَجَبِى ممَّن قد فَطِنَ لبُخْلِهِ ، وعَرَفَ إفْرَاطَ شُحِّهِ ، وهُو فى ذَلكَ يُجَاهِدُ نفسَهُ ، ويُغَالِبُ طَبْعَهُ . ولَرُبَّما ظَنَّ أنْ قَد فُطِنَ لهُ ، وعُرِفَ ما عندَهُ ، فموَّهَ شَيْئًا لا يَقْبَلُ التَّمويهَ ، ورَقَعَ خَرْقًا لا يقبلُ الرَّقْعَ .

فَلَوْ أنَّه كَما فَطِنَ لعَيْبِه ، وفَطِنَ لمنْ فَطِنَ لعَيْبِهِ ، فَطِنَ لضعْفِهِ عنْ عِلاجِ نفسِهِ ، وعنْ تقْويمِ أخْلاطِهِ[7] ؛ وعَنِ استرجَاعِ مَا سَلَفَ مِنْ عاداتِهِ ، وعنْ قَلْبِهِ أخْلاقَهُ المدْخُولةَ إلَى أنْ تَعُودَ سَلِيمَةً ، لَترَكَ تَكَلُّفَ ما لاَ يَسْتَطِيعُهُ ، ولَرَبحَ الإنْفَاقَ علَى مَنْ يَذُمُّهُ ، ولَمَا وَضَعَ علَى نَفْسِهِ الرُّقَبَاءَ ، ولا أحْضَرَ

---

(١) تَهْجِينه : تقبيحه . هجّن الشيء : قبحه وعابه .

(٢) المَرْفِق : ما انتفعت به ، يقال : ارتفق به : انتفع واستعان . (٣) يَعْيَا : يعجز ؛ لأن العِىّ العجز وعدم الاهتداء لوجه المراد .

(٤) عِذاره : يقال للمنهمك فى الغَىّ : خلع عذاره ، على التشبه بالفرس الذى لا لجام له .

(٥) المراد بالصفحة : الوجه ، وإبداؤها للذم : التعرض له من غير مبالاة .

(٦) رسم فى الكتب : أى كتب فيها ، أى لا يرضيه فى احتجاجه للبخل إلا ما هو مدون فى الكتب من الانتصار له .

(٧) تقويم الأخلاط : أى إصلاح ما فسد منها حتى يعتدل المزاج ، وهذه الأخلاط هى الدم والبلغم والصفراء والسوداء حسبما كان العرب يعتقدون .

مائِدتَه الشعراءَ ، ولا خَالَطَ بُرُدَ الآفاقِ[1] ، ولاَ لاَبَسَ الموكَّلينَ بالأخبارِ ، ولاسْتَراحَ مِنْ كَدِّ الكُلْفةِ ، ودَخَلَ فى غمارِ الأمَّةِ .

وَبعدُ فما بَالُهُ يفْطَنُ لِعُيُوبِ النَّاسِ إذَا أَطْعمُوهُ ، ولاَ يفْطَنُ لعَيْبِ نَفْسهِ إذَا أَطْعمهُمْ ، وإنْ كانَ عَيْبُه مكْشُوفًا ، وعيبُ مَنْ أطْعَمَهُ مَسْتُورًا ؟ .

ولِمَ سَخَتْ نَفْسُ أحدهمْ بالكَثِيرِ مَنِ التِّبْرِ[2] ، وشحَّتْ بالْقلِيلِ مَنِ الضُّعْمِ ، وقَدْ عَلِمَ أنَّ الَّذِى مَنَع يَسيرٌ فِي جَنْبِ ما بَذَلَ ، وأنَّهُ لَو شَاءَ أَنْ يُحَصِّلَ بِالقَلِيلِ ممَّا جَادَ به أضْعَافَ ما بَخِلَ بِهِ ، كَانَ ذلكَ عَتِيدًا ، ويسيرا مَوْجُودًا ؟

(تساؤلات والرد عليها)

وقُلتَ : ولاَ بُدَّ مِنْ أنْ تُعَرِّفنِى الهَنَاتِ التى نَمَّتْ عَلَى المتكَلِّفينَ ، ودلَّتْ علَى حَقائِق المُتَمَوِّهِينَ ، وهَتَكَتْ عَنْ أسْتَارِ الأدْعيَاءِ ، وفرَّقتْ بينَ الحقيقَةِ والرِّياءِ ، وفَصَلَتْ بينَ البَهْرَجِ[3] المُتَزَخْرِفِ ، والمطْبُوعِ المُبْتَهَلِ[4] ؛ لتَقِفَ - زَعَمْتَ - عندَهَا ، ولِتعْرِضَ نَفْسَك عَليْها ، ولتَوهَّمَ مواقِعَها وعَواقبَها . فَإنْ نَبَّهك التَّصَفُّحُ لهَا عَلَى عَيْبٍ قَدْ أغْفَلْتَه ، عَرَفْتَ مكَانَه فاجْتنبتَه . فإنْ كَانَ عَتِيدًا ظاهِرًا معروفًا عِندَكَ نَظَرْتَ : فإنْ كَانَ احتمالُك فاضِلًا علَى بُخْلِك ، دُمْتَ علَى إطْعَامِهم ، وعَلَى اكتِسابِ المحبَّة بمؤاكَلَتِهم ، وإنْ كَانَ اكْتراثُك غَامِرَ الاجتهادِ سَتَرْتَ نَفْسَكَ ، وانْفَرَدْتَ بِطيِّبِ زَادِكَ ، ودَخَلْتَ معَ الغِمارِ ، وعِشْتَ عَيْشَ المستُورِينَ . وإنْ كَانَتِ الحرُوبُ بينَكَ وبيْنَ طِبَاعِكَ سِجَالًا[5] ، وكَانَتْ أسْبَابُكما أمْثالًا وأشْكالًا ، أجَبْتَ الحَزْمَ إلَى تَرْكِ التَّعرُّضِ ، وأجَبْتَ الاحتيَاطَ إلَى رَفْضِ التكيُّف ، ورَأَيتَ أنَّ مَنْ حصَّلَ السَّلامةَ مَنِ الذَّمِّ فقَدْ غَنِم ، وأنَ مَنْ آثر الثِّقةَ على التَّغْرير فقدْ حَزُم .

وذَكَرْتَ أنَّكَ إلَى مَعْرِفَةِ هذَا البَابِ أحْوَجُ ، وأنَّ ذَا المُرُوءَةِ إلَى هَذَا العِلْم أفْقَرُ ، وأنِّى إنْ حَصَّنْتُ منَ الذَّمِّ عِرْضَكَ ، بعدَ أنْ حصَّنتُ من اللُّصوصِ مَالكَ ، فقَدْ بلغتُ لكَ ما لمْ يبلغْه أبٌ بارٌّ ، ولا أمٌّ رَءُومٌ[6] .

وَسألَتَ أنْ أكْتُبَ لَكَ عِلَّة أنَّ الرَّجُل أحقُّ بِبَيْتِهِ منَ الغَرِيبِ ، وأوْلَى بأَخِيهِ منَ البَعيدِ ، وأنَّ البعيدَ أحقُّ بالغَيْرَة ، والقرِيبَ أوْلَي بالأَنفَةِ[7] وأنَّ الاسْترادَةَ فى النَّسْلِ كالاستزادةِ فِي الحرْثِ ، إلاَّ أنَّ

---

(١) بُرُدَ الآفاق : البرد : جمع بريد ، والمراد بها هنا : الرسل ، أى أنه لم يختلط بهم ليَنقلوا أخبار كرمه .
(٢) التِّبْر : فتات الذهب أو الفضة قبل أن يصاغ .
(٣) البهرج : الرديء من الشيء ، يقال : بهرج الكلام وغيره : زيفه ورده لزيفه .
(٤) المُبْتَهل : المرسل عن القيد . يقال : أبهل الراعى لرعيته : تركهم يفعلون ما يشاءون ، لا يأخذ على أيديهم .
(٥) الحرب سجال : أى مرة على هؤلاء ، وأخرى على هؤلاء . (٦) رَءُوم : تعطف على ولدها وتحبه .
(٧) الأَنَفَة : العزة والحمية .

العادةَ هيَ الَّتي أوْحَشَتْ مِنْهُ ، والدِّيانَةَ هِيَ الَّتى حَرَّمتهُ ، ولأنَّ النَّاسَ يَتَزَيَّدونَ أيْضًا في اسْتعظامِهِ ، ويَنْتَحِلُونَ أكْثرَ مِمَّا عِنْدَهُم في استِشْناعِهِ .

وَعِلَّة الجَهْجَاه[1] في تَحْسِين الكَذِب بِمَرْتَبَة الصِّدقِ فى مَوَاضِعَ ، وفى تَقْبِيح الصِّدْقِ فى مَوَاضِعَ ، وَفي إلْحاقِ الكَذِبِ بمرتَبَة الصِّدْقِ ، وَفي حَطِّ الصِّدْقِ إلَى مَوْضِعِ الكَذِبِ ؛ وأَنَّ النَّاسَ يَظْلِمُونَ الكَذبَ بتَناسِي مَنَاقِبِه[2] ، وتَذَكُّر مَثَالِبِهِ[3] ، ويُحَابُونَ الصِّدقَ بتذكُّرِ مَنَافِعِهِ ، وبتنَاسِي مَضَارِّهِ ، وإنَّهُمْ لوْ وازَنُوا بَيْنَ مَرَافِقِهما ، وعَدَلُوا بَيْنَ خِصَالِهما ، لَمَا فرقُوا بينَهُما هَذا التَّفْرِيقَ ، ولَمَا رَأَوْهُما بَهذهِ العُيُونِ.

ومَذْهَبَ صَحْصَح فى تفضِيل النِّسْيانَ علَى كَثِيرٍ مَنِ الذِّكْرِ ، وأَنَّ الغَبَاءَ فى الجملةِ أنفَعُ منَ الفِطنَةِ فى الجملَةِ ، وأنَّ عَيْشَ البهائم أحسنُ مَوْقعًا مِنَ النُّفُوسِ منْ عَيْشِ العقلاَءِ ، وأَنَّكَ لَو أسْمَنْتَ بَهيمةً ورجُلًا ذا مُروءةٍ ، أَوِ امرأةً ذاتَ عقلٍ وهِمةٍ ، وأُخْرى ذاتَ غَبَاءٍ وغَفْلَةٍ ، لكَانَ الشَّحْمُ إلَى البهيمَةِ أسْرَعَ ، وعَنْ ذَاتِ العَقْلِ والهِمَّةِ أَبْطأَ . ولأنَّ العقْلَ مَقْرونٌ بالحَذَرِ والاهْتِمَام ، ولأنَّ الغَبَاءَ مقرونٌ بفَرَاغِ البَالِ والأمنِ ، فَلِذَلِكَ البهيمةُ تَقْنُو شَحْمًا[4] فى الأيَّامِ اليَسِيرةِ ، ولاَ تجدُ ذلِكَ لذِى الهِمَّةِ البَعيدَةِ . ومتوقَّعُ البَلاَءِ فى البلاَءِ وإنْ سَلِمَ منْهُ . والعَاقلُ فى الرَّجَاءِ إلَى أنْ يُدْرِكَهُ البلاءُ .

وَلَولاَ أنَّكَ تَجِدُ هَذِه الأبوابَ وأكثرَ منها مُصَوَّرَةً فِي كتابِى الَّذِي سُمِّى (كتابُ المَسَائِلِ) ، لأَتيتُ علَى كثيرٍ منهُ فِي هَذَا الكِتَابِ .

فَأَمَّا ما سألْتَ مِنَ احتجَاجِ الأشْحَّاءِ ، ونوادِرِ أحاديثِ البُخَلاءِ ، فسأوجِدُكَ ذلِكَ فى قِصَصِهِمْ - إنْ شاءَ اللَّهُ تعالى - مُفَرَّقًا ، وفى احْتِجَاجاتِهِم مجْمَلًا ، (فهوَ أجْمعُ لهذَا البَابِ) مِنْ وصْفِ ما عِنْدِى ، دُونَ مَا انْتَهَى إلَيَّ منْ أخبارِهِمْ على وَجْهِهَا ؛ وعلَى أنَّ الكِتَابَ أيضًا يَصِيرُ أقْصَرَ ، ويَصِيرُ العارُ[5] فيهِ أقلَّ .

(فى هذا الكتاب)

وَنَبْتَدِئُ برسالةِ سَهْلِ بنِ هَارونَ[6] ، ثم بِطُرَف أهْلِ خُراسَانَ ، لإكْثَارِ النَّاسِ فِي أَهْلِ خُراسانَ .

ولَكَ فِي هذَا الكتابِ ثَلاَثَةُ أشْيَاءَ : تَبيُّنِ حُجَّةٍ طَرِيفةٍ ، أو تَعَرُّفِ حِيلَةٍ لَطِيفَةٍ ، أَوِ اسْتِفَادَةِ نَادِرَةٍ عَجِيبةٍ . وأَنْتَ فِي ضحِكٍ منْهُ إذَا شِئْتَ ، وفى لَهْوٍ إذَا مَلِلْتَ الجِدَّ.

---

(١) الجَهْجَاه : رجل له رأى فى تحسين الكذب فى مواطن خاصة وكذلك فى تقبيح الصدق .

(٢) المناقب : جمع منقبة ، وهى الخصلة الحميدة .

(٣) المثالب : جمع مثلبة ، وهى العيب .

(٤) تَقْنُو شَحْمًا : تجمع ، والشحم : الدهن .

(٥) العار الذى يلحق البخلاء أقل بسبب الأخبار المصنوعة الكثيرة المبالغة .

(٦) سهل بن هارون بن راهبون : كاتب بليغ ، ومن واضعى القصص ، فارسى الأصل خدم هارون الرشيد وابنه المأمون . الأعلام (٣/ ١٤٣) .

وأَنَا أزعُم أنَّ البُكاءَ صالِحٌ للطبَائِع ، ومحمودُ المَغَبَّةِ ، إذَا وافَقَ المَوْضِعَ ، ولم يُجاوِز المقدَارَ ، ولَم يَعْدِلْ عَن الجِهةِ ، ودَليلٌ عَلَى الرِّقَّةِ ، والبُعْدِ مِنَ القسوَةِ ، ورُبَّما عُدَّ مِنَ الوَفَاءِ ، وشِدَّةِ الوَجْدِ عَلَى الأَوْلِيَاءِ . وهُوَ مِنْ أعظَمِ ما تقرَّبَ به العابِدُونَ ، واسْتَرْحَم بِهِ الخائِفونَ .

وقَالَ بعضُ الحكَماءِ لرَجُلٍ اشتَدَّ جَزَعُه منْ بُكَاءِ صَبِيٍّ لَهُ : لا تجزَعْ ، فَإنَّه أَفْتَحُ لِجرْمِهِ[1] ، وأَصَحُّ لبَصَرِه .

وضَرَبَ عامرُ بنُ عبدِ قَيْسٍ[2] بيدِهِ علَى عَيْنِهِ ، فقالَ : جامِدةٌ شاخِصَةٌ لا تَندَى ! وقِيلَ لِصَفْوَانَ ابنِ مُحْرِزٍ ، عندَ طُولِ بكائِهِ وتَذَكُّرِ أَحْزَانِهِ : إنَّ طولَ البكَاءِ يورِثُ العَمَى . فقالَ : ذلكَ لهَا شهادةٌ . فبكَى حتَّى عَمِيَ .

وقَد مُدِح بالبُكاءِ ناسٌ كَثِيرٌ : منهُم يحْيَى البَكَّاءُ ، وهَيْثَمٌ البكَّاءُ . وكَانَ صَفْوَانُ بن مُحْرِزٍ يسمَّى البَكَّاءَ .

وإذَا كَانَ البكَاءُ (الَّذِى) مَا دَامَ صاحِبُه فيهِ فإنَّهُ فى بَلاَءٍ - ورُبَّما أَعْمَى البصَرَ ، وأفسدَ الدمَاغَ ، ودَلَّ علَي السُّخْفِ ، وقضَى علَي صاحِبِهِ بالهَلَعِ ، وشُبِّه بالأَمَةِ اللكْعَاءِ[3] ، وبالْحَدَثِ الضَّرَعِ - كذلكَ ، فمَا ظَنُّكَ بالضَّحِكِ الَّذِى لا يزالُ صاحِبُه فى غَايةِ السُّرورِ ، إلَي أَنْ ينقَطِعَ عنهُ سَبَبُهُ ؟

ولَوْ كانَ الضَّحِكُ قَبِيحا منَ الضَّاحِكِ ، وقبيحًا مِنَ المُضْحِكِ ، لمَا قِيلَ للزَّهْرةِ والحِبَرَةِ[4] والحَلْيِ والقَصْرِ المَبْنِيِّ : كَأَنَّه يَضْحَكُ ضحِكًا . وقد قالَ اللهُ جلَّ ذِكْرُهُ : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۝ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾[5] فوضَعَ الضَّحِكَ بِحذَاءِ الحياةِ ، ووضَعَ البكَاءَ بِحِذاءِ الموتِ . وإنَّه لا يُضِيفُ اللهُ إلَى نفسِهِ القَبيحَ ، ولا يمُنُّ علَى خَلْقِه بالنقْصِ .

وكيفَ لاَ يكُونُ مَوْقِعُه مِنْ سُرُورِ النَّفْسِ عظمًا ، ومِنْ مَصْلَحةِ الطِّباعِ كبيرًا ، وهُوَ شَيْءٌ فى أصلِ الطِّباعِ ، وفى أَسَاسِ التركيبِ . لأن الضَّحِكَ أوَّلُ خَيْرٍ يَظْهَرُ مِنَ الصَّبىِّ . وقدْ تَطِيبُ نَفْسُه ، وعَليْه ينبتُ شحمُهُ ، وَيكْثُر دَمُه الذِى هُوَ عِلَّةُ سُرورِهِ ، ومَادَّةُ قوَّتِهِ . ولِفَضْلِ خِصَالِ الضَّحِكِ عندَ العرب تُسمِّى أولادَها بالضَّحَّاكِ وبسَّام وبِطَلْقٍ وبطَلِيقٍ . وقد ضَحِكَ النبىُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ومَزَحَ . وضَحِكَ الصَّالحُونَ ومَزَحُوا . وإذَا مدَحُوا قالُوا : هُوَ ضَحُوكُ السِّنِّ ، وبَسَّام العَشِيَّاتِ[6] ، وَهَشٌّ إلَى الضَّيْفِ ، وذُو أَرْيَحِيَّةٍ واهْتِزَازٍ .

وإذَا ذمُّوا قَالُوا : هو عَبُوسٌ ، وهُو كَالِحٌ[7] ، وهو قَطُوبٌ[8] ، وهو شَتِيم المُحَيَّا، وهو مُكْفَهِر[9]

---

(١) لجرْمه : لجسمه .

(٢) عامر بن عبد الله ، المعروف بابن عبد قيس العنبرى : تابعى ، من بنى العنبر . قال أبو نعيم : هو أول من عرف بالنسك من عبّاد التابعين بالبصرة . مات فى خلافة معاوية ببيت المقدس . (الأعلام ٣/ ٢٥٢ ، ٢٥٣) .

(٣) اللكعاء : اللئيمة الحمقاء . يقال فى سب المرأة : يا لكاع . (٤) الحِبَرة : ثوب أو كتان مخطط كان يصنع باليمن .

(٥) [النجم: ٤٣-٤٤] . (٦) بسام العشيات : أى يرحب بضيوفه إذا جاءوا يتعشون عنده .

(٧) كَالِح : عابس ، وفى التنزيل للعزيز : ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤] .

(٨) قَطوب : القابض بين عينيه من جلد عابسه . (٩) مكفهر : متعبس .

أَبدًا ، وهو كَريهٌ ، ومقبَّضُ الوَجهِ ، وحامِضُ الوجهِ ؛ وكأنّما وجْهُه بالخَلِّ مَنْضُوحٌ!

وللمزْحِ موضعٌ ، ولهُ مقدارٌ ، متَى جاوَزَهُما أحدٌ ، وقَصّر عنهُما أحدٌ ، صارَ الفاضلُ خَطَلًا ، والتقصيرُ نَقْصًا . فَالناسُ لم يَعِيبُوا الضَّحِكَ إلا بقَدْرٍ ، ولم يَعيبُوا المَزْحَ إلا بقَدْرٍ .

وَمتى أُرِيدَ بالمزْحِ النفعُ ، وبالضَّحِكِ الشيءُ الذى لَه جُعِلَ الضَّحكُ ، صَارَ المَزْحُ جِدًّا ، والضحكُ وَقَارًا .

(بيان لقصور)

وهَذَا كتابٌ لا أَغُرُّكَ مِنْهُ[1] ، ولا أَسْتُرُ عنْكَ عَيْبَه . لأنَّه لا يَجُوزُ أنْ يُكْمَلَ لِمَا تريدُه ، ولا يجوزُ أنْ يُوَفَّى حقَّه كَما ينبغِى لَه : لأنَّ هَا هُنَا أحَادِيثَ كثيرةً متَى أطلعنَا منهَا حَرْفًا[2] عُرِفَ أصْحَابُها ، وإنْ لمْ نُسَمِّهم ، ولَم نُرِدْ ذلكَ بِهِمْ . وَسَواءٌ سَمَّيناهُم أو ذكَرْنَا ما يَدُلُّ عَلَى أسمائِهِم . منهمُ الصّديقُ والوَلِىُّ والمَستورُ والمتَجمِّلُ. وليسَ يَفِى حُسْنُ الفائدةِ لكُم بقُبْحِ الجِنايَةِ عَلَيْهِمْ . فهذَا بابٌ يَسْقُطُ البتَّةَ ، ويختلُّ بهِ الكتابُ لا مَحالَةَ . وهُو أكثرهَا بابًا ، وأعجبُها منكَ مَوْقِعًا - وأحاديثَ أخَرَ ليسَ لها شُهْرَةٌ ؛ ولو شُهِرتْ لما كانَ فيهَا دليلٌ على أربَابِهَا ، ولا هِىَ مفيدةٌ أصحابَها . وليس يتوفَّرُ أبدًا حُسْنُها إلاَّ بأنْ تَعْرِفَ أهلَهَا ، وحتَّى تتَّصِلَ بمستحِقِّها، وبِمَعَادِنِهَا واللاَّئِقينَ بها . وفى قَطْعِ ما بينَها وبَيْنَ عَنَاصِرهَا ومَعَانِيها سُقُوطُ نِصْفِ المُلْحة ، وذَهابُ شَطْرِ النادرةِ .

ولو أنَّ رجلًا أَلْزَقَ نادِرةً بأَبِى الحارث جُمَّيْنٍ ، والهَيْثَم بن مُطَهَّرٍ ، وبِمُزَبِّدٍ[3] ، وابنِ الأحْمَر ، ثم كانتْ باردةً ، لجَرَتْ على أحْسَنِ ما يكونُ . ولو وَلَّد نادرةً حارَّةً فى نفسِها ، مليحةً فى مَعْنَاها ، ثم أضَافَها إلَى صَالحِ بنِ حُنَيْنٍ ، وإلى ابنِ النَّوَاءِ ، وإلَى بعضِ البُغَضَاءِ ، لعادتْ باردةً ، ولصارت فاتِرةً ، فإنَّ الفَاتِرَ شَرٌّ منَ البارِدِ .

وكما أنَّك لو وَلَّدتَ كلامًا فى الزُّهْدِ ، ومَوْعِظَةً للناسِ ، ثمَّ قلتَ : هذا من كلامِ بكرِ بنِ عبد الله المُزنى[4]، وعامرِ بنِ عبد قَيْسٍ العَنْبَرِىِّ ، ومُوَرِّقٍ العِجْلىِّ ، ويزيدَ الرَّقَاشِىِّ ، لتضاعَفَ حُسْنُه ، ولأحدثَ لهُ ذلِكَ النَّسَبُ نَضارةً ورِفعةً لم تكنْ لهُ . ولو قلْتَ : قالَها أبو كَعْبٍ الصُّوفىُّ ، أو عبدُ المؤمنِ ، أو أَبُو نُوَاسٍ الشاعِرُ[5] ، أو حُسَينٌ الخليعُ ، لَمَا كَانَ لهَا إلاَّ ما لَها فى نَفْسِهَا . وبالحرى أنْ تغلَطَ فى مِقْدَارِهَا، فَتَبْخَسَ مِنْ حقِّها .

---

(١) لا أَغُرُّكَ مِنْهُ : أى لا أجعلك فيه على غير هدى وبيان .

(٢) الحرف : الطرف . قال تعالى : ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ [الحج : ١١] أى طرف وجانب .

(٣) هو أبو اسحاق مزبد المدنى كان كثير الدعابة والفكاهة ، حسن البادرة سريع الخاطر .

(٤) بكر بن عبد الله المُزَنى ، نسبة إلى مُزَيْنة ، أبو عبد الله البصرى ، ثقة جليل ، توفى سنة ١٠٦ (تهذيب التهذيب) .

(٥) الحسن بن هانئ الحكمى ، أبو نُواس : شاعر العراق فى عصره . ولد فى الأهواز ونشأ بالبصرة ، ورحل إلى بغداد فاتصل فيها بالخلفاء من بنى العباس ، ومدح بعضهم ، وخرج إلى دمشق ومنها إلى مصر ، فمدح أميرها الخصيب ، وعاد إلى بغداد فأقام إلى أن توفى فيها . الأعلام (٢/ ٢٢٥) .

وقَدْ كتبْنَا لكَ أحَادِيثَ كَثِيرةً مُضافةً إلَى أرْبَابِها ، وأحَادِيثَ كثيرةً غير مُضَافةٍ إلَى أرْبَابِهَا ؛ إمَّا بالخوفِ مِنْهُم ، وإمَّا بالإكْرَامِ لهُم . ولولاَ أنَّكَ سألْتَنِى هَذَا الكِتابَ لَمَا تكلّفتُه ، ولمَا وضعْتُ كَلاَمِى موضِعَ الضَّيْمِ والنَّقْمةِ . فإنْ كَانَتْ لائمةٌ أوْ عَجْزٌ فعليكَ ، وإنْ كَانَ عُذْرٌ فَلِى دُونَكَ .

رِسَالةُ سَهْلِ بنِ هَارُونَ ، أبِى محمَّد بن رَاهِبون، إلَى بَنِى عَمِّهِ مِنْ آلِ رَاهِبون[1]، حينَ ذَمُّوا مَذْهَبَه فى البخْلِ ، وتتبَّعوا كلامَهُ فى الكُتبِ[2]

بسم الله الرحمن الرحيم

أصْلَح الله أمْرَكُم ، وجَمَعَ شَمْلَكُمْ ، وعَلَّمَكُم الخيرَ ، وجَعَلَكُم مِنْ أهْلِهِ ! قَالَ الأحْنَفُ بنُ قَيْسٍ[3] : يا مَعْشَرَ بنَى تَمِيم ، لاَ تُسْرِعُوا إلَى الْفِتْنَةِ ، فإنَّ أسْرَعَ النَّاسِ إلَى القتَالِ ، أقَلُّهُم حَياءً مِنَ الفِرارِ . وقَد كانُوا يقُولُونَ : إذَا أردتَ أنْ تَرى العيُوبَ جَمَّةً فتأمَّلْ عَيَّابًا ، فإنَّهُ إنَّما يَعِيب[4] بفَضْلِ مَا فيهِ مِنَ العَيْب . وأوَّلُ[5] العَيْبِ أنْ تَعِيبَ مَا ليسَ بِعَيْبٍ . وقَبِيحٌ أنْ تَنْهَى عنْ[6] مُرْشِدٍ ، أو تُغْرِىَ بمُشْفِقٍ .

ومَا أردْنَا بمَا قلنَا إلاَّ هِدايَتكُم وتَقْويمكُم ، وإلا[7] إصلاحَ فسَادِكم[8]، وإبقاءَ النِّعمَةِ عليكمُ . ولئِنْ أخْطَأْنَا سَبِيلَ إرشَادِكُم ، فمَا أخطأْنَا سَبيلَ حُسْنِ النيَّةِ فِيمَا بَيْنَنَا وبينكم .

ثُم قَدْ[9] تعلَمُونَ أنَّا مَا أوْصَيْناكُم إلاَّ بِمَا قدْ اخترنَاهُ[10] لأنْفُسِنَا قَبْلَكم، وشُهِرْنَا بهِ فى الآفاقِ دُونَكم . فما كَانَ أحقَّكُم فى تقدِيم حُرْمَتِنا بكُم، أنْ تَرْعَوْا حَقَّ قَصْدِنا بذَلِكَ إليكُم ، وتنْبِيهَنا علَى ما أغْفَلنَا مِنْ وَاجِبِ حَقِّكُم ! فلا العُذْرَ المبسوطَ بَلَغْتُم ، ولاَ بواجِبِ الحُرْمَةِ قمْتُمْ . ولَوْ كَانَ ذِكْرُ العُيُوبِ بِرًّا وَفَضْلًا ، لرأينَا أنَّ فى أنْفُسِنَا عنْ ذَلِكَ شُغْلًا[11] . وإنَّ مِنْ أعظمِ الشَّقْوةِ ، وأبعدَ مِنَ السَّعَادَةِ ، أنْ لا يَزَالُ يُتَذكَّرُ زَلَلُ المعلِّمِينَ ، ويُتَنَاسَى سُوءُ اسْتِماعِ المتعلِّمِينَ ، ويُستَعْظَمُ غَلَطُ الْعَاذِلِينَ ، ولا يُحْفَلُ بِتَعَمُّدِ المَعْذُولِينَ .

(رد على اتهام بعيب)

عبتمُونى بِقَوْلِى لخَادِمِى : أجِيدِى[12] عَجْنه خَميرًا ، كَما أجَدْتِه فَطِيرًا ، ليكُونَ أطْيَبَ لطَعْمِهِ ،

---

(١) فى العقد بدون « أبى محمد بن راهبون إلى بنى عمه من آل راهبون » .
(٢) فى العقد بدون « حين ذموا مذهبه فى البخل ، وتتبعوا كلامه فى الكتب » .
(٣) الأحْنَفُ بنُ قَيْس بن معاوية بن حصين المرى السعدى المنقرى التميمى ، أبو بحر سيد تميم ، وأحد العظماء الدهاة الفصحاء الشجعان الفاتحين . ولد فى البصرة وأدرك النبى ﷺ ولم يره . راجع ترجمته بالتفصيل فى الأعلام (١/ ٢٧٦ ، ٢٧٧) .
(٤) بعدها فى العقد «الناس» . (٥) فى العقد «وإن أعيب» . (٦) فى العقد بدون «عن» .
(٧) فى العقد بدون «إلا» . (٨) فى العقد «فاسدكم» . (٩) فى العقد «وقد» .
(١٠) بعده فى العقد «لكم ولأنفسنا» . . . .
(١١) انظر العقد الفريد (٦/ ١٥٦) .
(١٢) فى العقد «أجيدى العجين فهو أطيب لطعمه وأزيدُ فى ربعه» .

وأزيدَ فى رَيْعِهِ[1] . وقَدْ قَالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ - رَضِيَ الله عنهُ ورَحِمَهُ - لأَهْلِهِ : أَمْلِكُوا العَجينَ ، فإنَّه أَرْيَعُ الطَّحْنَتَيْنِ .

وَعِبتُم عَلَيَّ قَوْلِى : مَنْ لَم يعرِفْ مَوَاقِعَ السَّرَفِ فِي المَوْجُودِ الرَّخيصِ، لَمْ يَعْرِفْ مواقِعَ الاقتصَادِ فى المُمْتَنِعِ الغَالِى : فَلَقَدْ أَتَيْتُ مِنْ مَاءِ الوُضُوءِ[2] بكَيْلةٍ يَدُلُّ حَجْمُها عَلَى مَبْلَغِ الكِفَايةِ ، وأَشَفَّ[3] مِنَ الكفَايةِ . فَلمَّا صِرْتُ إِلَى تفْرِيقِ أَجْزَائِهِ علَى الأَعْضَاءِ ، وإِلَى التَّوفيرِ عليْها مِنْ وظِيفَةِ[4] المَاءِ ، وجَدْتُ فى الأَعْضَاءِ فَضْلًا علَى المَاءِ ، فَعَلِمْتُ أَنْ لو كُنتُ مَكَّنتُ[5] الاقتِصَادَ فِي أَوائِلِه[6] ، ورَغِبْتُ عَنِ التَّهاوُن بِهِ فى ابتدائِهِ ، لخرجَ آخرُهُ علَى كفَايَةِ أَوَّلِهِ ، ولكَانَ نَصِيبُ العُضْوِ الأَوَّلِ كنَصِيبِ الآخِرِ . فَعِبتُمُونى بذَلِكَ ، وشَنَّعْتُمُوهُ[7] بِجُهْدِكُم ، وَقَبَّحْتُمُوه . وَقَدْ قَالَ الحَسَنُ عندَ ذِكْرِ السَّرَفِ : إِنَّهُ لَيَكُونُ فى[8] الماعُونَيْن الماءِ والكَلإِ . فلَمْ يَرْضَ بِذِكْرِ الماءِ حتَّى أَرْدَفَهُ بالكَلأِ .

وَعِبتُمُونِي حِينَ خَتَمْتُ[9] عَلَى سَدِّ[10] عظِيم ، وَفِيهِ شَيْءٌ ثَمينٌ مِنْ فاكِهَةٍ نَفيسَةٍ[11] ، ومِنْ رُطَبَةٍ[12] غَريبةٍ ، علَى عَبْدِ نَهمٍ ، وصَبِيٍّ جَشِعٍ ، وأَمَةٍ لَكْعَاءَ، وزَوْجَةٍ خرقاءَ[13] . وليسَ مِنْ أَصْلِ الأَدَبِ ، ولاَ فِي تَرْتيبِ الحُكْمِ ، ولا فِي عادَاتِ القَادَةِ[14] ، ولا فِى تَدْبيرِ السَّادَةِ ، أَنْ يَسْتوِى فِي نَفيسِ المأْكُولِ ، وغَريبِ المشْرُوبِ ، وثَمينِ الملبُوسِ ، وخَطِيرِ المركُوبِ ، والنَّاعِمِ مِنْ كُلِّ فَنٍ ، واللُّبابِ مِنْ كُلِّ شَكْلٍ ، التَّابِعُ والمتبُوعُ ، والسَّيِّدُ والمَسُودُ . كما لا تَسْتَوِى مَواضِعُهم فى المجْلسِ ، وَمواقعُ أسمائِهِمْ فى العُنْوانَاتِ ، وما يُسْتَقْبلونَ بِهِ منَ التَّحِيَّاتِ. وكيفَ وهُم لا يَفْقِدونَ مِنْ ذلكَ ما يَفْقِدُ القادِرُ ، ولاَ يَكْتَرِثُون له اكْتِراثَ العَارِفِ؟ مَنْ شَاءَ أطعمَ كَلْبَهُ الدَّجَاجَ المسَمَّنَ ، وأَعْلَفَ حِمَارَه السِّمْسِمَ المقشَّرَ !

فعِبتُمُونى بالخِتْمِ ، وقَدْ خَتَمَ بعَضُ الأَئِمَّةِ علَي مِزْوَدِ سَوِيقٍ . وخَتَمَ علَى كِيسٍ فارِغٍ ، وقَالَ : طِينَةٌ خيرٌ مِنْ ظِنَّةٍ . فأمسكْتُم عَمَّنْ ختمَ علَى لا شَىءَ ، وعِبتُم مَنْ خَتَمَ علَى شىءٍ .

وعِبتُمُونى حينَ قلتُ لِلْغُلامِ : إِذَا زِدْتَ فى المَرَقِ فَزِدْ فى الإِنْضاجِ ، لِتَجْمَعَ بينَ التأْدُمِ باللَّحمِ والمَرَقِ ، ولِتَجْمَعَ معَ الارتِفَاقِ بالمَرَقِ الطَّيبِ[15] . وقد قال النبىّ ﷺ : « إِذَا طَبَخْتُم لَحْمًا فَزِيدُوا فى الماءِ ، فَإِنْ لم يُصِبْ أَحَدُكُم لحمًا أَصَابَ مَرَقًا »[16] .

وعبتُموني بخَصْفِ النِّعالِ ، وبتَصْديرِ القَمِيصِ، وَحينَ زعمتُ أنّ المخْصُوفَة أبْقَى وأَوْطَأُ وأَوْقَى،

---

(١) الفطير : العجين الذى لم يختمر ، فى ربيعه : فى زيادته ونمائه وسخائه .

(٢) بعده فى العقد بدون «بكيلة يدل حجمها» . . . . . (٣) فى العقد «وأشد» ومعنى أشف : أزيد .

(٤) فى العقد «وضيعة» . (٥) فى العقد «سلكت» . (٦) فى العقد بدون رغبت عن التهاون به فى ابتدائه .

(٧) فى العقد بدون «بجهدكم ، وقبحتموه» . (٨) فى العقد بدون «الماعونين» .

(٩) فى العقد «جثمت» . (١٠) فى العقد «شىء» . (١١) فى العقد بدون «نفيسة» .

(١٢) فى العقد «رطبة نقية ومن ربة غربية» . (١٣) فى العقد «مضيعة» .

(١٤) فى العقد «ولافى عدالة العادة» . (١٥) انظر العقد الفريد (٦/ ١٥٦) .

(١٦) ضعيف . أخرجه الترمذى فى الأطعمة ، باب ما جاء فى إكثار ماء المرقة (١٨٣٢) ، والحاكم فى المستدرك (٤/ ١٣٠) .

وأنْقَى للْكِبْرِ ، وأشبهُ بالنُّسُكِ ، وأنَّ الترقيعَ منَ الحَزْمِ ، وأنَّ الاجتماعَ مَعَ الحِفْظِ ، وأنَّ التَّمزُّق[1] مع التضْييعِ . وقَدْ كانَ النبيُّ ﷺ يَخْصِفُ نَعْلَه ، ويُرَقِّعُ ثَوْبَه[2] . ولقدْ لَفَقَتْ سُعْدَى بنتُ عَوْفٍ إزَارَ طَلْحَةَ ، وهُو جَوَادُ قُرَيْشٍ، وهوَ طَلْحَةُ الفَيَّاضُ . وكَانَ في ثَوْبِ عُمَرَ رِقَاعُ أَدَمٍ . وقَالَ : من لم يَسْتَحْيِ من الخِلالِ خَفَّتْ مُؤْنتهُ ، وقلَّ كِبْرهُ. وقَالُوا : لا جَدِيدَ لمنْ لاَ يلبسُ الخَلَقَ .

وبعَثَ زيادٌ رَجُلًا يَرْتادُ له مُحَدِّثًا ، واشْتَرطَ عَلَى الرَّائِد أنْ يكونَ عاقِلًا مُسَدَّدًا . فأتاهُ بهِ مُوَافِقًا . فقَالَ : أكُنْتَ ذَا معرفَةٍ بهِ ؟ قالَ : لاَ ، ولاَ رأيتُه قَبْلَ سَاعَتِه . قالَ : أفَناقَلْتَهُ الكَلامَ ، وفاتَحْتَهُ الأُمُورَ قبلَ أَن تُوصِّلَه إليَّ ؟ قال : لاَ . قالَ : فَلِمَ اخترتَه علَى جَمِيعِ مَنْ رأيتَهُ ؟ قالَ : يومُنَا يومٌ قائِظٌ[3]، ولَم أزَلْ أتعرَّفُ عُقُولَ النَّاسِ بطعَامِهِم ولِباسِهِم فى مِثْلِ هذا اليوْمِ . ورأيتُ ثيابَ الناسِ جُدُدًا ، وثيابَه لُبُسًا ، فظننتُ بهِ الحَزْمَ .

وقدْ عَلِمْنَا أنَّ الخَلَقَ فى مَوْضِعِه ، مِثْلُ الجديدِ (فى مَوْضِعِه) . وقدْ جعَلَ اللَّه عزَّ وجلَّ لكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ، وبَوَّأَ لهُ مَوْضِعًا ؛ كَما جَعَلَ لكلِّ دَهْرٍ رجالًا ، ولكلِّ مَقامٍ مَقالًا . وقدْ أحْيَا بالسُّمِّ ، وأمَاتَ بالغِذاءِ ، وأغصَّ بالماءِ ، وقَتَلَ بالدواءِ . فترقيعُ الثَّوْبِ يَجْمَعُ معَ الإصْلاَحِ التواضُعَ . وخلافُ ذَلِكَ يجمعُ مع الإسْرافِ التكبُّرَ . وقدْ زعَمُوا أنَّ الإصْلاَحَ أحَدُ الكَسْبَيْن ، كما زَعَمُوا أنَّ قِلَّةَ العِيَالِ أحدُ اليَسَارَتَيْنِ[4] . وقدْ جَبَرَ الأحْنَفُ يَدَ عَنْزٍ . وأمرَ بذلِكَ النُّعمانُ . وقال عُمَر : مَنْ أكلَ بيْضة فقد أكلَ دَجَاجةً . وقالَ رجلٌ لبعضِ السَّادَةِ : أهْدِى إليكَ دَجاجةً ؟ فقالَ : إنْ كان لا بُدَّ فاجْعلْها بيَاضَةً[5] . وعدَّ أبوالدَّرْدَاء العُرَاقَ[6] حُرَّ البَهيمَةِ .

وعِبْتُمُونِي حينَ قُلْتُ : لاَ يَغُرَّنَّ أحدٌ بطول عُمُرِه ، وتقوُّسِ ظَهْرِه ، ورِقَّة عَظْمِهِ، وَوَهَنِ قُوَّتِهِ ، أن يُرِىَ أكْرُومَتَهُ ، ولا يُخرِجْه[7] ذلِكَ إلَى إخْراجِ مَالِه مِنْ يديْه[8] ، وتحويله إلَى مِلْكِ غَيْرِه ، وإلَى تحكِيمِ السَّرَفِ فيهِ ، وتسْلِيطِ الشَّهَواتِ عليهِ ؛ فلعلَّه أن يكُونَ مُعَمَّرا وهو لا يَدْرِى ، ومَمْدُودًا لهُ فى السِّنِّ وهو لاَ يَشْعُر . ولعلَّه أنْ يُرْزَقَ الولدَ علَى اليأسِ ، أو يَحْدُثَ عليهِ بعضُ مُخَبَّآتِ الدُّهورِ[9] ، ممَّا لاَ يَخْطُر علَى البالِ، ولاَ تُدْرِكُه العقُولُ ، فيَسْتَرَدَّهُ ممنْ لاَ يردُّهُ ، ويُظْهِرَ الشَّكْوَى إلى مَنْ لا يَرْحَمُهُ ، أضْعَفَ[10] ما كانَ عن الطَّلب ، وأقْبَحَ ما يكونُ به الكسبُ[11] . فعِبتُمُونى بذلِكَ . وقدْ قالَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ : اعْمَلْ لدنيَاكَ عَملَ مَنْ يَعِيشُ أبَدًا ، واعْمَلْ لآخرتِكَ عملَ مَنْ يموتُ غَدًا[12] .

---

(١) فى العقد «التفريط» .
(٢) صحيح . أخرجه أحمد فى المسند (٦/ ١٠٦ ، ١٢١ ، ١٦٧ ، ٢٤٢ ، ٢٦٠) ، والتبريزى فى مشكاة المصابيح (٥٨٢٢) .
(٣) قائظ : شديد الحر . (٤) اليسار واليسارة : الغنى . (٥) انظر العقد الفريد (٦/ ١٥٧) .
(٦) العُراق : العظم إذا أخذ عنه أكثر اللحم . (٧) فى العقد «فيدعو» . (٨) فى العقد «يديه» .
(٩) فى العقد «آفات الدهر» . (١٠) فى العقد «أصعب» . (١١) فى العقد أن يطلب .
(١٢) انظر العقد الفريد (٦/ ١٥٧) .